جامعة إدلب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الرقعة عاصمة الرشيد

(المنصور والمهدي والرشيد)

د. هدى العبسي

مقدمة

أدرك العباسيون أهمية موقع الرقة الإستراتيجي والواقع على الضفة الشمالية لنهر الفرات، عند التقاء رافدة البليخ القريب من الحدود البيزنطية، وتبعد عن مدينة حلب الواقعة في غربها **190كم** وعن دير الزور التي تقع إلى الشرق منها قرابة **140كم**، وتدين بأهميتها إلى موقعها المتوسط الذي جعلها موضع التقاء للطرق التجارية المتجهة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب مما جعلها محطة تجارية مهمة بين الجزيرة الفراتية والشام والعراق وأرمينيا وآسيا الصغرى والبحر المتوسط¹، وزادها أهمية كثرة أراضيها الخصبة وسهولة إروائها ووفرة مياهها واتساع مراعيها، وهذا الموقع الجغرافي المتميز جعلها تشغل مكانة تجارية وزراعية وحضارية كبيرة عبر التاريخ، وهذا الأمر الذي جعل معظم الخلفاء العباسيين عموماً ولاسيما المنصور والمهدي والرشيد، يوليها أهمية خاصة، فأصبحت من أهم المدن في العصر العباسي، وغدت مقراً لهم في بلاد الشام بعد نقل العاصمة إلى بغداد، وأصبحت مركزاً لانطلاق العمليات العسكرية ضد بيزنطة، وقاعدة لإمداد الجيوش، وبلغت ذروة الاهتمام من قبل العباسيين أيام الرشيد الذي رفع من شأنها، لدرجة أنه هجر العاصمة بغداد ونقل مركز ملكه وحكمه إليها، فزاد في عمارتها، فبنى القصور، ووسع الأسواق، وأحدث أسواقاً جديدة فيها، فتدفق رجال العلم والحكم والسياسة والشعراء إليها. ونظراً للأهمية البالغة للرقة على الصعيد السياسي والحضاري، فإننا سنحاول الإجابة عن المكانة التي شغلتها الرقة والذي أهلّها أن تكون مقراً للخلفاء العباسيين في بلاد الشام دون سواها.

الرقعة تاريخياً:

عرفت مدينة الرقة في التاريخ القديم توتول موقع تل البيعة الحالي والتي ورد اسمها في المصادر التاريخية منذ الألف الثالث قبل الميلاد وعاصرت مملكة يمحاض (حلب) وماري واستمرت بازدهارها حتى عصر حمورابي ملك بابل.

إنَّ أهميةَ موقعِ الرقةِ تطلَّبَ تأسيسَ منشآتٍ معماريةٍ شكَّلتِ نواةَ قريةٍ قديمةٍ لفتتَ نظرَ الإسكندر المكدوني، وينسب إلى المكدونيين تأسيس مدينة نيقوفوريوم في موقع (الرقة السمرء)، ثم تغيَّرَ اسمُها عندما أسَّس سلوقس الثاني كالينكوس في عام 244 ق.م، مكان مدينة الرقة البيضاء (في حي المأمون حالياً) ، عُرِفَتْ باسم كالينيكوم، وبعض المؤرخين يردّها إلى الفيلسوف اليوناني "كالينيكوس"² الذي يعتقد أنه دفن فيها، وفي العصر البيزنطي كانت المدينة مركزاً اقتصادياً وعسكرياً هاماً، وقد وردَ اسمُها في كتابات سريانية وبيزنطية كمركز تجاري مهم على طرق القوافل التجارية وبخاصة طريق الحرير، وفي عهد الإمبراطور البيزنطي ليون (457-474) م عُرِفَتْ باسم ليونتوبوليس¹، والرقة بفتح الراء والقاف مع تشديدها وفقاً لضبط الحموي لها وأصلها كل أرض إلى جنب واد ينبسط عليها الماء، وجمعها رقاق، وذكر الحموي نقلاً عن الأصمعي: الرقاق الأرض اللينة من غير رمل³.

وفي الأعلام الخطيرة عن هشام بن الكلبي قال: إنما سميت الرقة لأنها على شاطئ الفرات، وكل أرض على الشط ملساء مستوية فهي رقة⁴، وفي العام 639م، فتحها الجيش الإسلامي، وكان اسمها آنذاك (الرقعة) ومن معانيها في اللغة الصخرة

المسطحة، حررها القائد العربي عياض بن غنم⁵ من الحكم البيزنطي، وفي العصر الأموي تابعت مدينة الرقة زدهلها، فبنى فيها الخليفة هشام بن عبد الملك (743-724) م سوقاً تجلياً وشق قنواتٍ وُرعاً للمياه، فانتشرت زراعة الكروم والأشجار المثمرة على ضفاف الفوات، وكانت بداية ازدهار المدينة في العصر الأموي فقد عنى الأمويون بالرقعة، واتصل تاريخهم بها طيلة عصرهم فقد كانت محطتهم نحو أرمينية التي اهتموا بها اهتماماً زائداً، وكان منهم بعض ولاتها فالرقعة محطتهم إلى محاربة الروم، فهي التي تمون الجيوش وتشرف على القبائل العربية في الجزيرة الفراتية كلها والتي كانت درعا للشام وقاعدة انطلاق للجيوش شمالاً وشرقاً، فقد كان مسلمة بن عبد الملك يمون جيشه من المؤمن من الرقة لقتاله الخوارج الحرورية في الفرات أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز.

وأخذ الولاة الأمويون ينزلون الرقة، وكان لبعضهم القصور في ضواحيها ومزارع البليخ، وكانت النواحي عامرة مزدهرة في عصرهم بالإضافة إلى ازدهار الحركة الفكرية فقد نزلها بعض الصحابة والتابعين وكثير من المحدثين، فبيئة الرقة ملائمة لحياة العلماء والفقهاء والأدباء، بسبب كثرة خيراتها ورخص أسعارها وطيب مناخها، ومن بين المحدثين نزلها الصحابي وابصة بن معبد الأسدي⁶ روى بعض الأحاديث عن رسول الله وكان ثقة ونزلها يزيد بن الأيهم وهو ابن أخت ميمونة زوج الرسول الله. أدرك هشام بن عبد الملك أهمية الرقة العسكرية بعد إقامته في الرصافة قرب الرقة، فأقام التحصينات في المدينة بالإضافة إلى أنه أمر ببناء جسر من السفن على الفرات حيث سهل حركة الجيوش، واهتم من جهة أخرى بتطوير المدينة، وتحسين حياة السكان الاقتصادية، وتوسيع الأسواق، حيث شيد هشام سوقها الكبير الذي سمي

بسوق الرقة، وقد أصبحت لهذا السوق في العصر العباسي أهمية كبيرة، وكان يسمى بسوق هشام العتيق وعُدَّ من أهم الأسواق كما أورد القشيري⁷، ومع قيام الدولة العباسية أخذت المدينة بالازدهار حتى أصبحت مركزاً لولاية الجزيرة ونقطة عسكرية تنطلق منها الجيوش العباسية لمقاتلة البيزنطيين فيما بعد .

الرقة تدخل في طاعة العباسيين:

ورث العباسيون من أبناء عمومتهم الأمويين فيما ورثوا الرقة ومنطقتها، بعد انتصارهم في معركة الزاب، وعمت الثورات المعارضة للحكم العباسي مدن بلاد الشام وكان منها الرقة، وقوبلت هذه الثورات بالقوة والسيوف لإسكاتها، وقد تنبّه العباسيون لأهمية الرقة بوصفها قاعدة عسكرية ينطلقون منها، و يشرفون فيها على تهئية الأوضاع في بلاد الشام، وفي الوقت نفسه يشرفون على الأعمال العسكرية المتجهة الى بيزنطة، فخضعت الرقة للسيطرة المباشرة من قبل العباسيين ، وبويع أبو العباس السفاح (عبدالله بن محمد ابن علي بن عبدالله بن العباس) بالخلافة في الكوفة في 13 ربيع الأول سنة 132 هـ / تشرين الأول 749 م، وأصبحت الرقة مركز ولاية الجزيرة ، حيث أصبحت مقراً لإقامة الولاية، ومركزاً لإدارة العمليات العسكرية ضد فلول الجيش الأموي، فعين عبدالله بن علي العباسي أول حاكم عباسي للرقّة فأقام فيها ، وأرسل أخاه عبد الصمد لملاحقة مروان بن محمد، ولاشك أن أبا العباس كان محقاً في جعلها مركز ولاية الجزيرة⁸ لأنها شكلت همزة وصل للطرق الجغرافية بين العراق والشام ، وساحل المتوسط، ومنطقة الثغور، فكان لزاما عليه أن يحكم السيطرة عليها لإدارة العمليات العسكرية، وملاحقة ما تبقى من الأمويين، واضطر عبد الله بن علي

لمغادرة الرقة، فاستخلف موسى بن كعب التميمي⁹، ثم قام أبو العباس بتعيين المنصور على الجزيرة الفراتية وأذربيجان وأرمينية، وكانت مهمة الولاة هي تثبيت الحكم العباسي، وملاحقة فلول الأمويين، والملاحظ أن العباسيين اشتغلوا على وتر العصبية وكسبوا الى جانبهم اليمانية، لذلك عدَّ أهل الرقة معادين للحكم العباسي لأن جل سكانها من مضر، وعلى هذا يمكن تحديد سبب معاداة العباسيين لهذه المدينة التي شكلت عاصمة لديار مضر¹⁰، ولهذا أصبحت الرقة المركز المعادي للعباسيين، والذي أصبح عليهم لزاماً إخضاعها.

الرقة في عهد المنصور 136 - 158 هـ / 754 - 775 م

بعد وفاة أبي العباس السفاح ببيع بالخلافة العباسية أخوه أبو جعفر المنصور في الحجاز 136 هـ / 754 م واستمر بالخلافة إلى وفاته في ذي الحجة 158 هـ / تشرين الأول 775 م، فكانت خلافته 22 سنة وفي أيامه قامت ثورة عمه عبدالله بن علي سنة 136 هـ / 754 م مطالباً بحقه بالخلافة¹¹، فندب المنصور لحربه أبا مسلم الخراساني، وقد سار إليه من الأنبار وكان عبدالله محاصراً الرقة وبها (مقاتل بن حكيم العكي) الذي استخلفه المنصور، وكانت خطته أن يضرب أعداءه بعضهم ببعض وكان أعظم رجال العباسيين شدة ودهاءً ويعدُّ المؤسس الحقيقي للدولة العباسية¹².

بلغ عبد الله مسير أبي مسلم إليه، وخشي أن يهجم عليه، فأعطى العكي أماناً . وخرج إليه فيمن كان معه وأقام معه أياماً يسيرة، ثم وجهه إلى عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه الأزدي بالرقة وكان مع العكي ابنه، وكتب كتاباً حمله العكي فلما قدموا

على عثمان قتل العكي، وحبس ابنه، ولما بلغ عثمان هزيمة عبد الله بن علي وأهل الشام أخرج ابني العكي وضرب عنقيهما¹³.

وانهزم عبد الله بن علي وعبدالصمد أخوه معه، فسار أبو مسلم خلفه فوصل إلى الرقة وأخذ منها أموال عبد الله وتبعه إلى رصافة هشام وبعد ليلة انهزم عبدالله إلى البصرة، وتوارى عند أخيه (سليمان بن علي) فبذل له أماناً من المنصور وسيره إليه فحبسه في بيت أساسه من الملح فسقط عليه البيت فمات¹⁴.

ولم يقتصر اهتمام الخلفاء الاوائل من بني العباس على إسناد الأمور إلى من يتقون بهم فحسب، بل تعداه إلى أكثر من ذلك، فنجد غالباً الخليفة أو ولي عهده يخرج إلى هذا الجانب بين حين وآخر لتتقد شؤونه فقد أقام المنصور في مدينة حران أيام السفاح وعندما صار خليفة، يخرج حاجاً سنة 140 هـ / 758 م

وكان قد أحرم من الحيرة ثم رجع بعدما قضى حجه إلى المدينة فأجزل لأهلها العطاء ووسع عليهم في الرزق وفرق فيهم الجوائز، ثم رحل إلى بيت المقدس فزاره وصلى في مسجد القدس وأقام به شهراً، ثم سلك الشام منصرفاً حتى انتهى إلى الرقة، فنزلها وفي الرقة وإفاه منصور بن جعونة بن الحارث العامري صاحب حصن منصور فضرب عنقه ثم شَخَّص المنصور من الرقة سنة 141 هـ / 759 م وسلك الفرات إلى هاشمية الكوفة¹⁵.

وفي سنة 154 هـ / 771 م خرج المنصور بنفسه إلى الشام أمام جيشه الذي أعده بقيادة (يزيد بن حاتم المهلبلي) الذي أرسله إلى إفريقيا في خمسين ألفاً وكان مع

المنصور رجال حاشيته وهم لا يدرون أين يريد ؟ حتى بلغ الشام وانحدر إلى بيت المقدس وهناك سير الجيش بقيادة يزيد، ثم عاد إلى بغداد عن طريق الرقة.

بناء الرافقة:

نالت الرقة اهتماماً كبيراً من قبل المنصور، فقد أعجبه موقعها وطيب هوائها، فاعتزم على بناء مدينة جديدة عرفت بـ (الرافقة) فوجه ابنه المهدي إلى الرقة عام 155 هـ / 772 م فبناها على شاكله بغداد بهندستها وأسوارها وأبوابها وفصائلها وطاقتها ورجابها .. لتكون حصناً بجانب الرقة.

ولعل التفكير من قبل المنصور ببناء الرافقة لم يكن محض مصادفة أو من قبيل نزوة عابرة بل كان لهذا العمل جذور أعمق في نفس المنصور قبل قيام الدولة العباسية، فقد ذكر الأزدي : أن أبا جعفر أشار على أخيه السفاح بينما كانا في طريقهما من الحميمة بالأردن إلى الكوفة بضرورة تأسيس عاصمة جديدة حوالي مدينة الرقة لو قدر للعباسيين المجيء إلى الحكم لتكون هذه المدينة مقراً لشيعتهم¹⁶، ومن الدوافع المهمة لدى المنصور لبناء الرافقة إحساس الخليفة بأن الأمويين ارتكبوا خطأ فاحشاً لأنهم لم يتخذوا لأنفسهم مدينة محصنة تحصيناً قوياً لذلك بنى الرافقة على شكل قلعة محصنة لا يمكن لأي عدو الاستيلاء عليها بسهولة¹⁷.

وكان الدافع الاقتصادي على أهمية كبيرة لبناء الرافقة إذ إن الرقة قد تقدمت في العصر العباسي تقدماً محسوساً من الناحيتين التجارية والزراعية بسبب انتقال مركز ثقل الدولة إلى العراق فأصبحت تشكل النافذة التي تطل منها خيرات الجزيرة والشام ومصر على أسواق العراق فتجتمع الحاصلات المتنوعة فيها وتتساب إلى

العراق عن طريق النهر أو البر ، ومن يراجع طرق المواصلات الإسلامية ، خلال العصور الإسلامية الأولى¹⁸ يقف على الأهمية الاقتصادية لمدينة الرقة فقد كانت الرقة محطة على طريق البريد الواصل بين بغداد وشمال إفريقيا والذي يمتد من بغداد - الموصل - سنجار - نصيبين - رأس العين - الرقة - منبج - حلب - حماه - حمص - بعلبك - دمشق - الرملة - الفسطاط - الإسكندرية - برقة . ذكر المقدسي¹⁹: وهو يتحدث عن التجارة التي ترد العراق من إقليم الجزيرة (من الموصل الحبوب والعسل ومن سنجار فرك اللوز وحب الرمان والسماق ومن نصيبين شاه البلوط والفواكه المتعددة والموازين ومن الرقة الصابون والزيت) ويتضح من قول المنصور نفسه حول هذه الأهمية عندما اعتزم على بناء بغداد واختار موقعها فقد قال : (هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتيها فيها كل ما في البحر وتأتيها الميرة من الجزيرة وأرمينيا وما حول ذلك وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك)²⁰ . أو ما قيل عن نهر عيسى الأعظم أحد أنهار بغداد: (.. يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر)²¹.

والرافقة مدينة نموذجية كبغداد قامت على تخطيط هندسي مسبق ومدروس، ولا نعرف في تاريخ العمران العالمي أية مدينة كانت على شكل نعل الفرس غير الرافقة، ويستطيع الباحث أن يعاين بسهولة في طابعها طابع مدينة بغداد المعماري في كل المباني العظيمة التي رفع صروحها العرب المسلمون في الجزيرة والشام ومصر وإفريقيا والأندلس والعراق وإيران²² ومن الجدير ذكره أن الرافقة لم تأخذ من الرقة دورها مع مرور الزمن فقط بل أخذت حتى اسمها ، وقد تحقق الانتقال التدريجي إلى

الموقع الذي بناه المنصور، فقد ذكر ابن حوقل والاصطخري اللذان كتبوا في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أن الرقة والرافقة مرتبطتان ببعضهما البعض لكن لكل واحدة مستقلة ولها جامعها الخاص²³، لكن المقدسي ذكر أن الرقة مزدهرة والرافقة ضاحيتهما وبذلك يكون هناك تناقض، وقد حاول هرتزفلد تفسير هذا التناقض بأن المقدسي أخطأ حين ظن أن الرافقة هي الرقة، وعد الضاحية القائمة بينهما هي الرافقة، ويؤكد لسترنج أن أبنية شيدت في الفضاء بين الرقة والرافقة²⁴.

الرافقة في عهد المهدي : 158 - 169 هـ / 775 - 786 م

استقرت أحوال الدولة العباسية أيام المهدي بعد أن وطد له والده المنصور أركانها واستبشر الناس به خيراً أمام شدة المنصور، وفي بداية خلافته أمر بإطلاق كثير ممن سجنوا في أيام والده، وكان يجلس إلى المظالم وبين يديه القضاة واحب العمران واهتم بجيوش الصوائف لمواجهة الروم البيزنطيين وهدأت الثورات في الداخل بعهدته ثم انتفت إلى الأمور الخارجية للدولة.

دور الرقة في أعمال المهدي العسكرية ضد الروم:

على الرغم من أن المنصور اهتم اهتماماً بالغاً في تحصين الثغور، وبتثالثة في أهاليها، كما جعل من منطقة الجزيرة كياناً إدارياً مستقلاً، ووضع أساس النظام الثغري الذي وصل إلى حد الكمال أيام الخليفة المعتصم، فكان يقسم المرابطين إلى جماعات صغيرة، كل منها يتألف من عشرة مقاتلين إلى خمسة عشر مقاتلاً، ويبني لهم حصناً على بعد ثلاثين ميلاً من دار إقامتهم، بالإضافة إلى زيادة العطاء إلا أن الامبراطور البيزنطي قام بمهاجمة الثغور مستغلاً الاضطرابات في السنوات

الأولى من قيام الدولة العباسية، فدمر حصونها خاصة حصون الفرات وحصون المنطقة الوسطى (الجزرية) مثل الحدث وزبيرة وملطية، فتصدى له المهدي ووقف في وجه هذه الحملات البيزنطية على الثغور، فجهز جيشاً ضخماً مؤلفاً من متطوعين من خراسان والموصل والشام واليمن والعراق والحجاز، جعل على قيادته الحسن بن قحطبة، فلقنهم درساً قاسياً، واضطروهم إلى التقهقر عن المواقع التي سبق أن احتلواها. وثقلت وطأته على أهلها حتى صوّروه في كنائسهم. وكان للحسن بن قحطبة فضل في إعادة بناء طرسوس²⁵ وتحسينها وشحنها بالمقاتلة وأضاف بأن أمر بالبدء ببناء ثغر الحدث. ومما لا شك فيه أنّ تحصين طرسوس وبناء ثغر الحدث كان له أثر كبير في قوة الثغور أمام البيزنطيين.

ولم يكتف الخليفة المهدي بما أحرزه الحسن بن قحطبة من نصر، بل قرّر أن يقود المعركة بنفسه، وأن يصطحب معه ابنه هارون، فتوجّه في سنة 163هـ/ 779-780م. إلى الثغور حتى وصل إلى نهر جيجان حيث ترك ابنه يقوم بالمهمة التي أوكلها إليه، وذهب هو إلى بيت المقدس²⁶، ورافق هارون خالد بن برمك وجماعة من القواد المشهورين من أمثال عيسى بن موسى، وعبد الملك بن صالح، وحسن بن قحطبة²⁷. فحاصر سمالو بالمجانيق لمدة ثمانية وثلاثين يوماً. ولما اشتدّ الحصار عليها، وافق أهلها على التسليم بشرط منحهم الأمان على ألا يقاتلوا ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم. فأعطاهم الأمان ووافق على شروطهم.

وقد أجرى المهدي في هذه الحملة بعض التنظيمات في الثغور فرمّم مدينة المصيصة وزاد في سلاحها وجنودها. فأصبحت الرقة في عهد المهدي مركزاً أساسياً

لتزويد الجيوش بالمؤن والعتاد، وقاعدة لانطلاق جيوش المهدي إلى بلاد الروم، فيحاصر عاصمة بيزنطة القسطنطينية وغيرها ثم يعود للرقعة²⁸.

بناء صالحية الرقة:

تقع صالحية الرقة عند الطرف الشمالي الشرقي من مدينة الرشيد على شاطئ نهر البليخ عند دخوله الرقة وإلى الشمال الشرقي من تل البيعة ويطلق عليها في حاضرتنا الحالي اسم صويلح ونقل ياقوت في معجم البلدان: اختطها عبد الملك بن صالح الهاشمي.. وقال الخالدي: قرب الرقة وعندها بطياس ودير زكى وهو أنزه المواضع وقال الخلدیان: في تاريخ الموصل من تصنيفهما: أول من أحدث قصور الصالحية المهدي ... وفي روضيات الصنوبري في القرون المتأخرة، ولكن كيف يمكن تصورها في العصر العباسي الأول؟ يبدو أنها كانت من أنزه المواضع، ووصفتها الأخبار بالحسن والرقة وجمال الموقع والطبيعة وتقنن الشعراء في وصفها²⁹.

الرقعة حاضرة الرشيد: 170 هـ - 193 هـ / 786 - 809 م

خلافة الرشيد

جعل المهدي ابنه الهادي ولياً للعهد من بعده كما كان يدرك مكانة ابنه الثاني الرشيد، فجعله ولي عهد بعد أخيه وأمير الصائفة سنة 163 هـ، وولاه المغرب كله من الأنبار إلى أطراف إفريقية سنة 164 هـ، وكانت الولاة ترسل من قبله، وفي سنة 166 هـ جعله ولياً للعهد من بعد أخيه الهادي، وعندما توفي المهدي سنة 169 هـ / 785 م بويع لابنه موسى بالخلافة. فأقر يحيى بن خالد على ماكان يتولاه من أعمال الرشيد في الجانب الغربي من الدولة، ومن ذلك الوقت كان اتصال الرشيد

بالرقة وهو في صدر شبابه فقد كان يعقد رايات الجهاد بالصائفة عن طريق الرقة وهو ولي العهد، وكان يحب الإقامة والنزهة بين الهنيء والمريء³⁰، وهما من أعمال الرقة.

علم الخليفة موسى الهادي مقدار تعلق أخيه الرشيد بهذين النهيرين من أماكن الرقة وطلب منه طائِعاً أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه جعفر بن موسى الهادي، ووعد به بخير كثير وعطاء جزيل وعرض عليه (الهنيء والمريء) مقابل ذلك³¹. وعندما ضاق الرشيد ذرعاً بالحصار الذي فرضه عليه الهادي جاء إلى يحيى البرمكي وقال له : أريد أن اتنازل عن حقي فيها لأستريح من هذا العناء فقال له يحيى : لا تفعل ، قال الرشيد : إذا حصلت على (الهنيء والمريء) وخلوت بابنة عمي زبيدة بنت جعفر بن المنصور فلا أريد شيئاً ، فقال يحيى : وأين هذا من الخلافة، ولعل ما تقدر أنه يبقى لك لا يبقى، وما زال يحيى يلح عليه حتى أقنعه وقدمه وعندما آلت إليه الخلافة آل إليه الهنيء والمريء ولم تطل خلافة الهادي ولم يلبث أن توفي سنة 170 هـ / 786 م، فتولى بعد أخوه الرشيد بن محمد المهدي وهو من مواليد الري سنة 145 هـ / بوع بالخلافة في 14 ربيع الأول 170 هـ / 14 ايلول 786 م وعمره 25 سنة ولم يزل خليفة حتى توفي في الثالث من جماد الآخر سنة 193 هـ / 24 آذار 808 م وكانت مدة خلافته 23 سنة وشهرين وتوفي وعمره 48 سنة وكان الرشيد عند توليه الخلافة محاطاً برعاية أمه الخيزران ومربيه يحيى بن خالد فانصرف إلى الحج والغزو وإلى النزهات وارتياح المصائف وإلى البوادي العربية³².

الرقعة والرشيدي:

عرفت الدولة العربية أيام الرشيد القوة والمنعة والاستقرار إلى أبعد الحدود ولذلك توفر للخليفة وقت ليحج، ووقت ليغزو، ووقت ليصطاف، ويتربع في الرقة، ويترك قصر الخلد في بغداد وكانت جيوش الروم في هذا العصر في خشية دائمة من جيوش الرشيد، فما غزتهم إلا وحالفها التوفيق، وما اشتعلت فتنة في أرجاء دولته الواسعة إلا أطفالها، ومنها فتنة النزارية واليمانية في الشام، ثم إن الرشيد أكمل بناء الرافقة، وابتنى في الرقة قصوراً حتى إننا لم نجد اسماً لقصر بناه لنفسه في بغداد سوى ما أشارت إليه المصادر من قصر صغير لا يعرف اسمه قائم على رابية و جل ما رأيناه أنه كان يقيم في الخلد الذي ابتناه جده المنصور³³.

وأوعز الرشيد في الرقة إلى رجال دولته أن يبنوا قصورهم بجانبه وفي مدينته الجديدة، فبنوا وأمر بإنشاء كل ما يلزم من وسائل الراحة والترف كميادين سباق الخيل وملاعب الصولجان وحقول الصيد وموانئ السفن والحراقات والمنترهات الواسعة والحدائق المزهرة على ضفتي الفرات ، فأصبحت من أجمل مصائف الدنيا، وكان يقول : " الدنيا أربعة منازل دمشق والرقة والري وسمرقند " وهكذا عاش الرشيد في الأعوام الأولى من خلافته في دعة، وخلو بال، وغزو وحج، وأسفار وتقل في البلاد، وذلك إلى ما بعد وفاة أمه الخيزران سنة 173 هـ 789 م، واختار الرشيد الرقة كمدينة لبناء قصوره، ومنها قصر السلام، والقصر الأبيض، وقصر الخشب، وقصر هرقل³⁴، والسؤال الذي يمكن طرحه ماهي الأسباب التي جعلت الرشيد ينتقل من بغداد إلى الرقة ليتخذها عاصمة ثانية للخلافة؟ وهل هرب الرشيد من البرامكة؟ أو من مشاكل في بلاد الشام أراد السيطرة عليها؟

ذكر (العاصمة) عند العرب بمفهومها الحالي كان يعبر عنها بـ (دار الملك) أو (مقر الخلافة) أو (موطن الخلافة) أما لفظ العاصمة في اصطلاحهم فقد كان يعني (الثغر) أو (الحصن) لصد غارات المعتدين على الحدود وورد لفظ العاصمة بمفهوم الثغر أو الحصن لأول مرة في خلافة الرشيد سنة 170 هـ / 786 م خلال إحدى إقاماته بالرقعة " ... إذ عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً سميت بـ (العواصم)³⁵ .

لا شك أن أسباباً وعوامل عديدة جعلت الرشيد يتخذ الرقعة مقراً له ولم تكن محض المصادفة منها:

- الأسباب السياسية: اشتعلت العصبية القبلية في الشام بين أهلها، وتفاقم أمرها، وكما خشي الرشيد الخوارج الذين لم يستطع الأمويون والعباسيون إفناء روحهم الثورية على الرغم مما كانوا يجردون لهم من الجيوش، وقد شكلت الرقعة مركزاً لهم لاسيما الإباضية، واشتهر زمن الرشيد خوارج ذوو بأس شديد أعظمهم اثراً الوليد بن طرف الشاري³⁶، حيث قضى الرشيد على ثورته قبل أن تصل إلى الرقعة³⁷.

- يبدو واضحاً أن الوقت الذي تم فيه الانتقال إلى الرقعة هو نفسه الذي سقط فيه البرامكة، حيث كانوا يقبضون على زمام السلطة الشامة، وقد أراد الرشيد أن يحرر حكمه بعد 17 سنة من سلطة البرامكة خصوصاً، والفرس بشكل عموماً، وقد أثارت هذه الخطوة الكثير من الدهشة في بغداد، وجلبت لهارون الرشيد من دوشك نقمة المقربين من البرامكة، وللهرب من هذا العدو انتقل هارون الرشيد إلى الرقعة³⁸، ومن الصعوبة بمكان تحديد تاريخ ذهاب الرشيد إلى الرقعة فهل هو قبل نكبة البرامكة، أو

بعدها، ولكن من المؤكد أن الضربة الحاسمة للبرامكة جاءت من الرقة³⁹. حيث وجه الرشيد رجاء الخادم لقبض أموالهم، وأخذ كل ما يمتلكون من رقيق، وأموال، وحشم، فأقام يحيى والفضل بعد إلقاء القبض عليهما في الرقة رهن الاعتقال الأول في السجن، والثاني في أحد القصور، ومرض يحيى في معتقله، فتوفي ودفن في الرقة على شاطئ الفرات 190هـ/805م⁴⁰.

وأما الأسباب العسكرية فقد أصبحت الرقة منذ بناء الرافقة في عهد المنصور قاعدة لإقليم الجزيرة بدلاً من حران التي اتخذها مروان عاصمة له، وأقام الولاة منذ عهد المنصور فيها⁴¹، وفي عهد المهدي أصبحت قاعدة لانطلاق الجيوش لحرب البيزنطيين منذ سنة 163هـ/779م، وعندما تولى الرشيد تابع ما قام به أسلافه في الماضي قديماً في إعداد الصوائف والشواتي، فكان يعدها بسهولة من الرقة، ويتابعها من بغداد⁴²، وكان الرشيد يخشى انفصال أجزاء من الدولة الغربية بعد أن ترامت أطرافها، واتسعت رقعتها وابتعدت أقاليمها عن المركز، لذلك أراد أن يجعل من الرقة قاعدة يحبط من خلالها محاولات الانفصاليين⁴³.

- الأسباب الاقتصادية: لا شك أن الرقة تقدمت من الناحية الاقتصادية بسبب انتقال الثقل السياسي إلى العراق، وأصبحت هي السبيل الذي تصل خيرات الجزيرة وبلاد الشام إلى أسواق العراق، كما أنها نفسها أنتجت العديد من المحاصيل مثل القمح، والخل، والعسل، وأقلام القصب، والزيتون، والزيت⁴⁴، وقد وصف المقدسي الرقة بأنها حسنة الأسواق كثيرة القرى والبساتين والخيرات كما أن أوضاع سكانها الاقتصادية جيدة⁴⁵. وقد شكلت محطة تجارية للطرق البرية كما يؤكد ابن خرداذبة في المسالك والممالك حيث تلقى عندها مجموعة من الطرق التي تصل بغداد، والموصل، وحمص، ودمشق، وحلب، وساحل المتوسط، والثغور الحدودية⁴⁶، وهي محطة للطرق

النهرية حيث شكل الفرات شرياناً مهماً لربط سورية والجزيرة مع العراق، حتى إن النهر أصبح وسيلة للنقل، وكان الخلفاء يتنقلون عبره من الرقة إلى بغداد، حيث ربط الفرات بدجلة بقناة مما أمكن الوصول من خلالها إلى بغداد⁴⁷.

وأفضل من يجيب عن سبب طوي الرشيد بغداد واختيار الرقة، الرشيد نفسه حين يقول:

والله إنني لا أطوي مدينة ما وصفت بشرق ولا غرب مدينة ولا أيسر منها (أي بغداد)، وإنها لوطني ووطن آبائي، ودر مملكة بني العباسي، ولكني أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والمتلصصة، ومخيفي السبيل، ولولا ذلك ما فارقت بغداد ولا خرجت عنها أبداً⁴⁸.

إن انتقال الرشيد إلى الرافقة من سنة 180هـ/796م، وبقائه فيها حتى سنة 193هـ/808م، كان سبباً في ازدهارها حيث استعادت الرقة القديمة مكانتها.

مكانة الرقة السياسية في عهد الرشيد:

أصبحت الرقة في عهد الرشيد مركزاً للقرار السياسي حيث اتخذ الرشيد العديد من القرارات التي تركت بصمتها على كل العالم الإسلامي، حيث غير جذرياً ولاية الأقاليم، ورجال الدولة الموالين للفرس والمعروفين بعدائهم للدولة العباسية، واستبدلهم بمن يثق بهم من العرب، وجاءت الضربة الحاسمة للبرامكة من الرقة⁴⁹، وشملت التغييرات حتى المؤسسة العسكرية، فقد أسند قيادة الجيش في القضاء على ثورة طريف إلى القائد العربي يزيد من مزيد الشيباني، الذي تولى كذلك مهمة إخماد الثورات في أذربيجان الشمالية. واعتمد على العرب والمستعربين الأمناء لسد الفراغ الذي تركه البرامكة في المناصب الإدارية كعمر بن مسعدة وإسماعيل بن صبيح، وكبار الهاشمية، ووزع القيادات العسكرية على الحدود، ومنهم عبد الله بن مالك ويحيى بن سعيد العقيلي، وسعيد بن مسلم وغيرهم⁵⁰،

وعندما كان يريد معرفة الأقاليم أو الثغور أو إرسال كتاب يحمل أمراً ما إلى الأماكن التي تبعد مسيرة أيام وليال، كان الأمر يتم بسرعة عن طريق الحمام، والنجائب⁵¹.

أثر الرقة في أعمال الرشيد العسكرية ضد الروم البيزنطيين:

إن من أهم العوامل التي جعلت الرشيد يختار الرقة مصيفاً له ثم عاصمة للخلافة موقعها الجغرافي ومكانتها العسكرية، حيث إنها أصبحت منذ عهد أبيه المهدي قاعدة لانطلاق الجيوش الإسلامية لغزو الروم البيزنطيين، ومركزاً لتزويدها بالمؤن والإمدادات، وقد أدرك الرشيد نفسه هذه الأهمية فمنها قاد أول الغزوات الكبرى في عهد أبيه سنة 163 هـ / 779م، ثم تابع في عهده، واهتمّ باستكمال تحصينات منطقة الثغور، فعمّر مدينة طرسوس ثم نهض في سنة 180 هـ / 796-797م. ببناء مدينة عين زربه وحصنها. وزاد في أعداد المرابطين فيها، وأعطاهم المنازل والإقطاعات. وفي سنة 183 هـ / 799م بنى مدينة الهارونية وشحنها بالمقاتلين. كما أمر ببناء مدينة الكنيسة السوداء وحصنها⁵²، وزاد عدد الحماة فيها، وزاد أعطياتهم. وكذلك فقد أتمّ بناء كفر بيا وحصنها بخندق، وجعل لها سوراً مزدوجاً⁵³.

يُضاف إلى هذا كله أنّ الجيش العباسي تكامل قدرة ونظاماً وتدريباً وكفاية في عهد هارون الرشيد. ويؤكد ذلك تجنيده للأعداد كبيرة في منطقة العواصم وتسخييره لعدد من الفرق في حملاته المتكررة المظفّرة، مما يؤكد كفاية التدريب وحسّ التسليح. فقد كان الجيش العباسي في عهد هارون الرشيد من أكفأ الجيوش التي عرفها العالم في آنذاك. فقد بلغ تعداد الجنود الذين اشتركوا معه في حملته على البوسفور خمسة

وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين جندياً، كما اشترك معه في حملة هرقله مائة وخمسة وثلاثون ألفاً من المرتزقة سوى الأتباع والمطوعة ومن لا عطاء له. كما قاد داود بن عيسى في بعض الحملات سبعين ألفاً، وقاد شراحيل بن معن بن زائدة وكذلك يزيد بن مخلد مثل هذا العدد.

وقد قام الرشيد بالحملة الأولى ردّاً على غارات البيزنطيين المتكررة على الحدود، والتي حرمت البلاد من الهدوء والطمأنينة، فقد اجتاح جيشهم الثغور، وأطلقوا أيديهم سلباً ونهباً. فأسرع الرشيد إلى صد زحفهم وأنزل بهم خسائر فادحة، وخرج برفقة الرشيد ذلك الجيش الجديد الذي اهتم بتأليفه وتقويته مع من سبقوه من خلفاء بني العباس. وقد ألفت الخلافة العباسية بكل ثقلها في هذه الحرب، وجندت له عدداً كبيراً من الجنود، كما دعمته بالمال الكافي. وتوغّل هارون الرشيد في آسيا الصغرى فافتتح حصن ماجده. وأصبح الطريق مفتوحاً أمام المسلمين بعد هزيمة قائد البيزنطيين، فتوجّهوا إلى نيقمودية بقيادة يزيد بن مزيد. وواصل الرشيد سيره حتى أشرف على البوسفور⁵⁴.

كانت حملة هارون الرشيد هذه خاتمة الحملات العربية على البوسفور، وكانت بعد أربع حملات قبلها جرت في عهد الأمويين. وعلى الرغم من استمرار الغزوات بعد ذلك عبر آسيا الصغرى، إلا أنّها لم تصل إلى البوسفور حتى إنّ هارون الرشيد نفسه في حملاته بعدها لم يتعد هرقله.

وذكرت المصادر والمراجع العربية التي تحدّد تاريخ حملة هارون الرشيد على البوسفور، والتي عقد البيزنطيون على أثرها معاهدة الصلح مع هارون الرشيد على

أنها جرت في جمادى الأولى من سنة 165 هـ / 781م⁵⁵. ومن المؤكد أن هذا التاريخ الذي حدّد لهذه الحملة ليس صحيحاً لأسباب عديدة:

- إن الهدنة بين هارون الرشيد وإيرين استمرت اثنتين وثلاثين شهراً، ثم نقضها نقفور بعد أن تولى العرش. ولما كان نقفور قد تولى العرش في سنة 186 هـ / 802م، فإن ذلك يرجح أن حملة هارون الرشيد على البوسفور قد قامت بين سنتي 182 - 183 هـ / 798 - 799م.

- إن هارون الرشيد تولى الخلافة في سنة 170 هـ / 786م⁵⁶، وأغفل المؤرخون دور المهدي في هذه الحملة، مما يؤكد أنها جرت في خلافة الرشيد وليس في عهد المهدي. إذ لو كانت الحملة قد جرت في سنة 165 هـ / 781م أي في عهد المهدي (158 - 169 هـ / 775 - 785م) لأشادت المصادر باسمه مع اسم ابنه قائد الحملة.

- إن إيرين تولّت العرش البيزنطي في سنة 181 هـ / 797م⁵⁷، بعد خلافة الرشيد بإحدى عشرة سنة وكانت قبل ذلك وصية على ابنها، إلا أن ما يذكره الطبري من أن الهدنة بين الطرفين استمرت اثنتين وثلاثين شهراً ثم نقضها نقفور⁵⁸ تؤكد أن الحملة جرت بعد تولي إيرين عرش الإمبراطورية، وليس في عهد وصايتها.

ومهما يكن من أمر، فإن هارون الرشيد أظهر في هذه الحملة كثيراً من المهارة والحنكة العسكرية. وكان من أثر ذلك النصر، أن الإمبراطورة إيرين اضطرت إلى طلب الصلح، وعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات، تعهّدت الإمبراطورة بموجبها أن تدفع جزية سنوية قدرها تسعون ألف قطعة تؤدّيها على قسطين. وأن تمدّ الجيش العباسي بالأدلاء وتيسر لهم المؤن في الطريق⁵⁹.

ومما لا شك فيه أنه كان لشجاعة الرشيد وإقدامه الفضل الأكبر في هذا النصر. إلى جانب ظروف أخرى ساعدته على التحقيق. وتعود إلى سوء الظروف الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية في ذلك الحين. فقد كانت الإمبراطورة إيرين في وضع سيء، إذ كانت تلقى معارضة داخلية قوية من إخوة زوجها، وأنصار قسطنطين الخامس والجيش وكبار الموظفين بالدولة، الذين كانوا من أعداء عبادة الأيقونات. يُضاف إلى هذا أن الكنيسة نفسها كانت تحت حكم البطريرك بولس، وكان ضد عبادة الأيقونات. وفوق كل ذلك فقد كان عليها أن تواجه الثورات في صقلية وبلاد اليونان. وقام هارون الرشيد بحملته الثانية كرد رادع لإمبراطور البيزنطيين الجديد نقفور. فقد تولى العرش إثر ثورة داخلية قامت في بيزنطة قبض فيها على إيرين⁶⁰، وكان يظن أن لديه من القوة ما يكفي للوقوف في وجه المسلمين بقيادة هارون الرشيد. فبدأ بنقض الهدنة⁶¹ ولم يكن قد مضى على عقدها اثنان وثلاثون شهراً. وألقى بجموعه على عين زربة والكنيسة السوداء⁶²، حيث قاموا بما يشبه الإغارة الحربية، وأسروا كل من تمكنوا من أسرهم وعادوا.

وتمادى نقفور في غيه، وظن أن بإمكانه أن يتوقف عن دفع الجزية. وأن يستعيد ما دفعته إيرين من الجزية، فكتب في سنة 187هـ / 802-803م⁶³، إلى الخليفة هارون الرشيد كتابه المشهور، الذي يظهر فيه ضعف الإمبراطورة التي كانت قبله، ويطلب من الرشيد إعادة الأموال التي أخذها من إيرين، ويهدده بالحرب إن لم يفعل. وتبدو في لهجة كتابه اعتداده بقوته وشجاعته ولا عجب أن كان جواب الرشيد أشد إيجازاً وفيه دلالة قوية على استعدادة للقتال وثقته بالنصر وتحقيره لعدوه.

ونهب الرشيد لتنفيذ ما صمم عليه من إعطاء العدو درساً لا ينساه، فجمع جيوشه بأعدادها الكبيرة برية وبحرية في سنة 190 هـ / 805-806م وسار هو على رأس قواته البرية، فحاصر هرقله ثلاثين يوماً حتى فتحها وسبى أهلها⁶⁴. ثم وَّزَع جيشه إلى أقسام متعدّدة، توجه كلّ قسم إلى جهة محدّدة في الأراضي البيزنطية⁶⁵. وقام قواد هذه الأقسام بفتح حصون عديدة منها: حصن الصنصاف وحصن الصقالبة ودبسة. عند ذلك وجد نقفور نفسه عاجزاً عن الوقوف في وجه الجيوش المسلمين، فوافق على دفع جزية سنوية قدرت بثلاثمائة ألف دينار مقابل وقف القتال، وأضاف بدفع جزية عن نفسه وولده وبطارقته قدرها خمسون ألف دينار، واشترط على الرشيد ألاّ يخرب ذا الكلاع ولا صملة ولا حصن سنان. كما اشترط الرشيد عليه أن لا يعمر هرقله⁶⁶. أمّا الحملة البحرية التي رافقت هذه الحملة فقد قادها حميد بن معيوف وبلغت حتى قبرص⁶⁷.

إلا أن نقفور مال بث أن نقض العهد، وخان الميثاق، مطمئناً إلى أن الرشيد لن يعود إليه بسبب البرد، فخاب ظنّه حين وجده قد دخل الأراضي البيزنطية وهو أصلب وأشد من المرة السابقة، ولم يتركها حتى بلغ ما أراد. ورضخ نقفور لمطالبه⁶⁸.

الحياة الاقتصادية:

1- الزراعة:

بما أن الرقة كانت تقع على ضفة الفرات فقد كانت ذات سهول خصبة وطبيعة غنية وقد زرعت فيها أنواع عديدة من المزروعات يأتي على رأسها

الحنطة وزراعات أخرى وقد دفع اهتمام الخلفاء بالزراعة إلى قيامهم ببعض

المشاريع لري سهول الرقة فقام الرشيد بحفر قناتين هما:

أ- النيل⁶⁹:

ذكرت المصادر أنه نهر حفره الرشيد على ضفة الفرات والبليخ وقد

شاهدنا آثاره تجري بين أبنية مدينة الرشيد وقصورها إلى أن يلتقى بالبليخ

وبعد أن يمر من دير زكى الذي تغنى به الشعراء من ذلك قول

الصنوبري:

كأن عناق نهري دير زكى إذا اعتنقا عناق مقيمين

وقت ذاك البليخ يد الليالي وذلك النيل من متجاورين

أقاما كالسوارين استدارا على كفيه أو كالملجين⁷⁰

ب- قناة سروج:

كان يشاهد مقطعاً منها إلى الشمال الغربي من الرقة وتختلط بقناة النيل

قبل دخولها مدينة الرشيد وذكر ميخائيل أن قناتين منفصلتين من منطقة

سروج ترويان الرفافة من الفرات⁷¹.

وقد قام المأمون بمسح لوضع كشف لأراضي الشام بما فيه الرقة وذلك لزيادة مواردها

وزيادة دخلها الاقتصادي وتحسين الأوضاع المعيشية إثر ثورة نصر بن شيث

العقيلي⁷².

- الصناعة القديمة في الرقة:

برعت الرقة بصناعة الصابون لكثرة ما كان فيها من أشجار الزيتون وقد كثرت فيها معاصر الزيت في العصر العباسي، وما قبله وكان مما فرضه عياض بن غنم فاتح الرقة على أهلها تأدية كميات معينة من الزيت إلى بيت مال المسلمين كل سنة، وكان فيها الصابون الجيد الذي يدخل في تركيبه الزيت كما ذكر الرحالة الجغرافي المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم)⁷³، واشتهرت الرقة بصناعة الخمر لما في الرقة من كروم، وسبب كثرة الزوار والزبائن من المسلمين وغيرهم الذين يترددون عليها في الأعياد أو الأيام العادية، حيث ذاعت شهرة خمارات الرقة في مجال الحقبة مجال البحث من العصر العباسي⁷⁴، وكانت تضرب النقود، فقد عثر في أثناء الحفريات التي قامت بها مديرية الآثار في قصر من القصور بالرقة خارج السور على نقود برونزية ضربت في الرافقة سنة 210 هـ بعصر المأمون⁷⁵ .

ويستدل من كثرة الأواني الخزفية والزجاجية المختلفة الأشكال والصحون والأباريق والأكواب والدنان والكؤوس والجرار والمصابيح والشوابك، وخلافها مما عثر عليه في خرائب الرقة، التي كانت أيام العباسيين وحتى في العصرين الأتابكي والأيوبي مركزاً لمعامل خزفية وزجاجية، تكفي حاجة سكان المدينة، ونقيض بحيث صدرت إلى البلاد المجاورة التي فخرت بمصنوعات الرقة المتقنة الجميلة والتي هي نتيجة الخبرة المتواصلة، وانتشرت صناعة الفخار والخزف والزجاج مما جعل صناعتها في الرقة يتنافسون بإتقانها والتفنن برسومها وكتابتها وألوانها وأشكالها .

والأواني الزجاجية والخزفية التي وجدت في حفريات الرقة ذات زخارف نباتية خطية وهندسية وملونة ووجدت أباريق نحاسية مزينة بكتابات.

وقد ذاعت شهرة مدينة الرقة بصناعة الخزف وكانت الرقة تقف بهذه الشهرة إلى جانب شهرة مدينة الموصل التي كانت أعظم مركز لصناعة التحف المعدنية المنزلة بالفضة والذهب في القرنين السادس والسابع بعد الهجرة / الثاني عشر والثالث عشر / م، ولا بد أن تكون الموصل قد أثرت في صناعة المعادن بالرقة للعلاقات الادارية والتجارية والسياسية التي كانت بين المدينتين الجزيريتين قروناً والمتأثرين كل منهما بالأخرى⁷⁶.

1- التجارة:

ازدهرت التجارة في العصر العباسي نتيجة انتشار الأمن، ووجود أسواق، ومن الأسواق التجارية التي ازدهرت في العصر العباسي سوق الأحد الذي أصبح أهم أسواقها⁷⁷، وقد وسع الرشيد المنطقة التجارية، وأقام أسواق الحرف التجارية، وقد حملت هذه الأسواق اسم المهن التي زاولها الناس كسوق الوراقين، وسوق الصاغة، وسوق الحدادين والخزف⁷⁸، وقد سهل الخلفاء عملية التجارة عن طريق إقامة الطرق، وتشجيع التجارة، وكانت الرقة ذات طريق تجاري بري ونهري حيث أقام الخلفاء طرق نهرية فكانت الرقة تصل ما بين الرصافة وقرقيسيا ثم مدن العراق وبغداد، كما ازدهرت فيها الأسواق وكانت الرقة مصطفاً للخلفاء العباسيين مما زاد في وارداته من أعطيات الخلفاء، وتعود أهمية الرقة إلى عهد الأمويين حيث كانت مركز جيوش الأمويين عندما كانت تقاوم الخوارج في العراق .

ويمكن للأرقام التي وضعها المؤرخون عن خراج الجزيرة أن تعطي فكرة عن مدى خصبها وغناها وازدهارها في العصر العباسي فابن الفقيه يعطينا رقماً دقيقاً عن خراج

الجزيرة في أيامه وهو تسعة آلاف وسبع مئة وخمسة عشر ألفاً وثمان مئة درهم (9715800)⁷⁹.

مشاركة الرقة بالحركة العلمية في العصر العباسي:

كانت الرقة في كل عصورها مركزاً عسكرياً ممتازاً ومنطقة تجارية مزدهرة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار متوسطة الموقع، ولهذه الأسباب كانت من مراكز العلم والأدب في بلاد ما بين النهرين قبل الإسلام في العهد الآرامي والبيزنطي حيث كانت مركز أسقفية نبع فيها أساقفة وكهنة علماء تولوا مناصب كهنوتية عالية، وألفوا كتباً ونبغ فيها أدباء وعلماء وشعراء آراميون. وفي العصور الإسلامية خرج منها شعراء وفقهاء وأدباء ولغويون وقضاة ومؤدبون ورواة وفلاسفة وأطباء ومحدثون فهي قد عرفت في كل عصورها حركة علمية وأدبية لم تقتر وشاركت في الحركة العلمية في العصور الإسلامية مشاركة واسعة بمن خرج فيها من الأدباء والعلماء والفقهاء وبمن نزلها.

فكانت في العصرين الأموي والعباسي من مراكز العلم والأدب في الخلافة العباسية والغريب أن الذين يذكرون مراكز الأدب في العصر العباسي يعدون الكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة ودمشق فقط، ويغفلونها، وحمل أبنائها نسبتهم إليها الرقي الرقيون وأحياناً الجزري الجزريون وهذه أسماء بعضهم ولمحات عنهم مما تيسر لنا العثور عليه من أبنائها وممن نزلها فقد اجتذبت في مختلف عصورها أدباء وشعراء وكتاباً وعلماء وفقهاء⁸⁰.

نذكر من هم: عبد الله بن عمر بن أبي الوليد الأسيدي، الأعشى الشاعر الرقي،
القشيري: المؤرخ الشهير صاحب كتاب تاريخ الرقة وممن نزلها من الصحابة التابعين
ومن الشعراء ربعة الرقي وكثير من غيرهم⁸¹، الأعشى الشاعر الرقي⁸².

فنون العمارة العربية الإسلامية في الرقة:

يمتاز طراز العمائر العربية الإسلامية في العصر العباسي الأول سواء في الرقة أو
في غيرها باستخدام مواد الأجر المشوي وغير المشوي (اللبن والجص والخشب والزجاج
والخزف وبتفضيل الأكتاف أو الدعامات على الأعمدة في حمل البوائك). ونجد فيه
أيضاً نزعة ترمي إلى التحرر والإبداع في فرش أرض القاعات والبدء في استعمال
الأشكال المنمقة كعنصر زخرفي فيجعلنا نقدر جرأة الفنانين ومدى تقدمهم.

وأخذ الفن العربي في مدينة الرقة أيام الرشيد وخلفائه يميل إلى النعومة
والرشاقة، ونجد هذا واضحاً في الزخارف الجصية التي تزين بها جدران المباني وصار
الفنان فيها يميل إلى ملء الفراغات في الجدران والقاعات بعناصر زخرفية لطيفة
متناظرة متنوعة وعناصر أخرى ملونة على الجدران بزخارف نباتية وهندسية.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك عنصر التتميق في الزخرفة الجصية من خلال
الأطر الجصية التي تزين بها واجهات الأبواب والأروقة والمداخل والدهاليز وعلى
الجدران في الغرف، والفن في مدينة الرشيد بالرقة من أنقى الفنون المعروفة، وهو
يعتمد تماماً على التلاعب بالخطوط والأشكال والألوان وهذا ما نشاهده في مدينة الرقة
على الخصوص وانطلاقاً من هذا فقد خرج إلينا أروع نتاج في الفن الإسلامي هو
الأرابيسك - اي التوريق - ويخطئ من يقول إن ولادة ذلك كانت في سامراء فالرقة أقدم

من سامراء ولدينا في متاحف دمشق والرقعة عشرات القطع التي تعد النماذج الأولى لفن الأرابيسك ويتميز فن الأرابيسك باستخدامه النماذج النباتية المحورة عن الطبيعة، والتي يمكن تكرارها في اللوحة الواحدة أو الإطار الجصي الواحد لكنها، غير مكررة في لوحات وأطر جصية في المباني بالرقعة، وعلى هذا فزخارف الأطر الجصية لتصور مدينة الرشيد يختلف فيها الزخرف بين إطار وإطار مجاور بصورة إبداعية مدهشة بحيث يعجب الناظر من كثرة ما كان في أذهان الفنانين من مبتكرات وأشكال متعددة، وهي أحياناً أشكال نباتية محورة عن الطبيعة وأحياناً ممزوجة بالزخارف الهندسية بأسلوب رشيق أخذ⁸³.

وفي ختام البحث تبين أن الرقعة شهدت في العصر العباسي ازدهاراً عمرانياً وتقدماً حضارياً وثقافياً، ولقد كانت حقبة البحث غنية وحافلة بالأحداث الجسام على الرغم من غياب حقائق كثيرة عن بعض الأحداث التي ما تزال غامضة في تاريخ الرقعة ومناطقها، وذلك بسبب كثرة ما أصاب الرقعة في بعض الفترات من كوارث وثورات وفتن وتخريب المغول لها، وفقدان العديد من المصادر عن تاريخها. وعلى الرغم من ذلك فإن العصر العباسي كان عصراً ذهبياً بالنسبة لحاضرة الفرات ولا سيما عندما شيد فيها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور مدينة الرافقة المجاورة للرقعة البيزنطية القديمة ثم عندما اتخذها الرشيد داراً لملكه وحاضرة لخلافته.

ولوحظ تعلق الرشيد بالرقعة منذ كان ولياً للعهد بالرقعة، حتى إنه أراد أن يتنازل عن الخلافة مقابل أخذ الرقعة، والإقامة فيها، وبعد استلامه للخلافة، قرر في سنة 180 هـ/796م الانتقال إليها والإقامة فيها دائماً وبقي فيها لمدة 13 سنة حتى وفاته 193 هـ/808م، ولاشك ان هناك مبررات عديدة دفعته للقيام بهذه الخطوة كقربها من منطقة

الثغور، وغناها بالثروات التي يمكن من خلالها تجهيز الجيوش التي انطلقت لغزو البيزنطيين، ورغبته في القضاء على ولاء أهلها للبيت الأموي، ومراقبة قبائل الجزيرة والشام، وقمع ثورات الخوارج، ورغبته بالتخلص من النفوذ الفارسي في بغداد المتمثل بالبرامكة، إلى جانب كونه مصطافاً يأوي إليه من حر الصيف في بغداد التي يسميها مدينة البخار، إلى جانب موقعها الجغرافي التي تميزت به، حيث شكلت عقدة للطرق التجارية، حتى أصبحت مقصد الصادر والوارد، ومركزاً للقرار السياسي والإداري والعسكري لذلك باتت تسمى بغداد الصغرى.

1 - طلاس، مصطفى: المعجم الجغرافي السوري، مركز الدراسات العسكرية، ط1، دمشق 1992 ج3، ص50.

2 - القشيري: محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القشيري الحراني: تاريخ الرقة، تحقيق طاهر النعساني، حماه، 1959، ص آ.

3 - الحموي: ياقوت معجم البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1979، ج3، ص 59، 58.

4 - ابن شداد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، منشورات وزارة الثقافة دمشق، 1991م، ج3، ص69.

5 - البلاذري (أحمد بن يحيى): فتوح البلدان، تح طه عبد الرؤوف، مطبعة ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت، 179.

6 القشيري (محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القشيري الحراني): تاريخ الرقة، تح الشعبيي، د.ت، ص 56، 85.

7 - كرد علي محمد: خطط الشام، دمشق 1925، ص163.

8 - اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن واضح بن جعفر بن وهبه): تاريخ اليعقوبي، مؤسسة الأعلمي للطبوعات، بيروت 1993م، ج2، 267.

9 - ابن شداد: الأعلام، ج3، ص17.

10 - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص141، ابن حوقل: صورة الأرض 203.

- 11 - المقرئزي: المنتقى من المقفى، ص 116.
- 12 - الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1988، ج8، ص 235.
- 13 - الطبري: تاريخه، ج4، 378.
- 14 - الزوقيني: تاريخ الزوقيني المنحول لديونيسيوس التلمحري، تر الشماس بطرس قاشا، بيروت، 2006م، ص156. ساك، دوئي، قصور الخلفاء في شمالي الرافدين من الفترة الأموية إلى الفترة العباسية، وثائق الآثار السورية الجزيرة، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق، 2002، ص282. الجومرد، عبد الجبار: هارون الرشيد حقائق من عهده وخلافته، شركة المطبوعات، بيروت، ص57.
- 15 - الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص 235.
- 16 - شمساني ،حسن مدينة سنجار ، بيروت 1983 ،ص241 .
- 17 - 'لحموي (ياقوت): معجم البلدان، تحقيق، عبد الإله نبهان، ج8، وزارة الثقافة، دمشق، 1983، ج7، ص 116
- 18 - لابن خرداذبه (أبو القاسم عبد الله بن خرداذبة:ت300هـ :المسالك والممالك، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1999م،ص 132-133.
- 19 - المقدسي(شمس الدين أبو عبد الله المعروف بالبشاري، ت378هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار بريل، لدين، 1906، دح، ص 215).
- 20 - الطبري: تاريخه، ج4، ص457
- 21 -اليعقوبي :البلدان، باب بغداد، ج1، ص8
- 22 - المقدسي :المصدر نفسه، ص215.
- 23 - ابن شداد: الأعلاق ،ج1، 123
- 24 - لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية تر كوركيس عواد، بغداد 1954، ص 139.شتورم، ويدر : أهمية الرقة منذ الفتح العربي وحتى الآن، وقائع ندوة الدولية حول الرقة وآثارها، الرقة، 1980م ،ص 133.
- 25 - 'لحموي (ياقوت): معجم البلدان، ج2، ص 222
- 26 - البلاذري : فتوح البلدان، ص 170

- 27 - الطبري: تاريخه، ج4، ص566.
- 28 - الطبري: تاريخه، ج4، ص572. ابن كثير: البداية والنهاية، ج10، ص147.
- 29 - الحموي: معجم البلدان، ج7، ص117.
- 30 الهني والمري نهران بجوار الرقة. الجواربة، فاطمة: موسوعة الخلفاء، دار صفاء، ط1، عمان، 2003، ج1، ص229.
- 31 - مجموعة من المؤلفين: الرقة درة الفرات، وزارة الثقافة 1992، ص91.
- 32 - الطبري: تاريخه، ج8، ص255.
- 33 - المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص385.
- 34 - لحموي: معجم البلدان، ج7، ص129. الحسون مصطفى: دار الرشيد وعاصمته الثانية، وقائع الندوة الدولية حول الرقة وآثارها، الرقة 1981م، ص36.
- 35 الطبري: تاريخه، ج4، ص620
- 36 - عياش، عبد القادر: حضارة وادي الفرات مدن فراتية القسم السوري، دمشق 1989، ص273-274.
- 37 - الطبري: تاريخه، ج4، ص644.
- 38 - شتورم: أهمية الرقة، ص10-11.
- 39 - الحسون: دار الرشيد، ص19.
- 40 - الطبري: تاريخه، ج4، ص661.
- 41 - مجموعة من المؤلفين: الرقة، ص96.
- 42 - الطبري: تاريخ، ج4، ص568.
- 43 - مجموعة من الباحثين: المفصل في تاريخ الرقة، دمشق 2003م، ج4، ص72.
- 44 - شتورم: أهمية الرقة، ص133.
- 45 - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص141.
- 46 - ابن خردادبة: المسالك والممالك، ص132، 135.
- 47 - الطبري: تاريخه، ج4، ص184.
- 48 - الطبري: تاريخه، ج4، ص675.
- 49 - الطبري: تاريخه، ج4، ص661.
- 50 - مجموعة من الباحثين: المفصل، ج4، ص79.

- 51 - الحسون: دار الرشيد ، ص43،42.
- 52 - البلاذري: فتوح البلدان،ص203
- 53 -البلاذري: فتوح البلدان، باب الثغور الشامية ،170
- 54- الطبري: تاريخه، ج4، ص572.
- 55 - المرجع نفسه، ص572
- 56 - المرجع نفسه،ج4، ص617
- 57 - ويل ديورانت، قصة الحضارة،ج14،ص437.
- 58 - الطبري: تاريخه، ج4، ص668
- 59 - المرجع نفسه، ج4، ص572
- 60 - ويل ديورانت، قصة الحضارة،ج14،ص437.
- 61 - الطبري: تاريخه، ج4، ص668.
- 62 - المرجع نفسه ، ج4، ص676.
- 63 - المرجع نفسه ، ج4، ص668
- 64 - المرجع نفسه ، ج4، ص669
- 65 - أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب العلمية، بيروت 1992م، ج18،ص
- 251،253.ابن الأثير: الكامل ،ج6،ص196.**
- 66 - ابن خلدون(عبد الرحمن ابن خلدون المغربي): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، إحياء التراث العربي، بيروت ،ج2، ص228.
- 67 - الطبري: تاريخه، ج4، ص677
- 68 - الطبري: تاريخه، ج4، ص669
- 69 - الحموي : معجم البلدان،ج5،ص334
- 70 - الحموي : معجم البلدان،ج5،ص334.
- 71 - زكار : الرقة درة الفرات ، ص 108.
- 72 - أمينة بيطار: العصر العباسي،مطبعة جامعة دمشق،ط4،دمشق،1997م، ص
- 79.**
- 73 - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 141.
- 74 - حباب (محمد صالح): تاريخ الرقة ابتداء من فتحها وحتى دمارها منشورات العصر الحديث ،د.ت، ص 236- 237
- 75 - عياش : حضارة الفرات ، ص302.

- 76 - مجموعة مؤلفين : الرقة درة الفرات ، ص 138
- 77 - عياش : الرقة، ق1، ص36.
- 78 - مجموعة من الباحثين: المفضل، ج4، ص74.
- 79 - ربحاوي (عبد القادر): الجزيرة في الحضارة العربية والإسلامية، وثائق الآثار السورية ، منشورات وزارة الثقافة، ط1، دمشق، 2002م، ص 53.
- 80 - عياش: حضارة الفرات ، ص 307.
- 81 - القشيري الحراني(أبي علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن): تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين والفقهاء والمحدثين، دار البشائر، 1998 م
- 82 - المرجع نفسه ص143.
- 83 - مجموعة من المؤلفين: الرقة درة الفرات ، ص 110 وما بعد.